

ذات يومٍ بارد

قصّة بقلم عبد الستار ناصر

دوئما أشعر ، مما دعاها لان تخرج من دارنا ذات لحظة وهي تقول بأنها ستعود بعد قليل . وفرحت بهذا ، وأعطيت نفسي فرصة لحب حنان ، ونسيت انها أكبر مني ، وانها نحيفة ، وساذجة ، وانها لا تثير بقية الرجال ، حتى سمعتها تهمس في بحّة مخنوقة :

- ماذا تقرأ ؟

قلت لها مع ضحكة خبيثة :

- عنتر وعبلة .

وكانها لم تصدق ، فقد وجدتها تضحك ، وحيث راحت تتلفت حولها ، تخاف أن يصعد عندها أحد ، حتى قلت لها ، كاني أسخر منها :

- هل تحبين عبلة ؟ كانت سمراء ، وقوية .

- وعنتر كان أسود ، وأحبته عبلة ، وكان فاسيا مع غيرها ، ولكنه طيب معها .

وانخرط عند الجدار ما يشبه الدموع ، وكانت حنان تتوجع في صمت أحسه ، وأغفله ، بقسوة ، وكنت طيبا رغم هذا ، وبدأت أثير فيها نزوعا شبقا الى قصص الحب والزواج ، حتى ظننت بأنني أسخر من نفسي ليس غير ، وأعطيت عيوني الى أرض الحديقة ، تاركا فوق رأسي حنان تمسك بين عيونها بقيسة احساس بأنها ستبكي ، وانها ستبكي بحرقه .

ولما عادت أمي ، تراجعت حنان الى داخل بيتها ، تنوء بثقل الرغبة في شريك لها ، ثم انتهيت أنا الى الصفحة التالية من - كافكا - وأنا أنكور في مقعدي مثل سلحفاة تنام ، وسألت أمي عما اشترته مسن السوق ، ولم تكن قد اشترت أي شيء ، وكنت حينها قد انتهيت الى فكرة رحلت أقولها - لامي - بوقاحة :

- فكرت بأنه : سيراني أصدقاء أبي ، وسوف أقدم الشساى بنفسي .

- ... ؟

- وسوف أذهب اليوم الى المقهى ، كما سآزور أقاربي .

- ... ؟

- واظنني أتأخر .

وبقيت اثرثر ، وثمة احساس بالكآبة يعلوني ، حتى بكيت ، ولم أذهب الى المقهى ، ولم أزر أقاربي . ولم أعد أحس بأنني انسان ، وانتظرت أن تبكي أمي أيضا ، لكنها لم تبك وشعرت برهبة صمتها ، ونظرت في عيونها ، وكانت تموت بين يدي بلا صخب ، وبينما حاولت أن أصدق انها تموت بهذه البساطة ، كنت أبصق في عيوني ، وأجن . ولم يكن أبي رجلا طيبا ، كان قد وزع حبه لاكثر من واحدة ، وكان يرفع جثة أمي ويمضي بها ليدفع البالغ في تأفف يشوبه شيء من الحزن والبكاء ، وفي عيونه يطل أكثر من معنى يردد انه سعيد ، وان هناك متعة جاهزة ، وجديدة ، وان أمي مجرد أنفاس تخفت .

وزادت كراهيتي لنفسي ، وعشقت الصمت في حديقة منزلنا ، وكان أبي يتزوج مثل كلب قميء مشرد ، ولما نهزته ذات صدفة عابرة ، قال لي بقساوة :

- تف ، أيها المشوه البشع .

واحتزقت لعدة أيام ، وكاد رأسي - حينها - يتوزع بيسن صوته ، وكراهيتي لنفسي ، وكنت أفكر في نهاية لنفسي ، بهسدوء ، لكن ثمة همسة مبجوحة أسمعتها من حنان ، تجعلني أغفل عن نفسي ، وأقول لها :

حين بدأت أعشق النساء ، وأحلم بعيونهن السوداء ، كان وجهي يتعرض لهذا المرض ، ل يبدو بشعا ، مثل أطار متآكل ، تنام بين مساماته عروق منفوخة كالديدان البيضاء ، وتحشوه تنوءات مدببة ينخمشها الدم الفاسد ، وتقرعت جفوني حتى بدت كفراغ مظلم بجمجمة محتظة ، وبانت عيوني بين بقية أجزاء وجهي كشيء مفروس ، ومهمل دون تنسيق .

كنت لوحدي أفكر : ان ثمة ما يشلني في أعصابي ، لهذا وجدت نفسي يوما بعد آخر ، بعد آخر ، أفرق فسي عزلني ، أهرب من أصدقائي ، ثم أهرب من محلتي ومقهاها ، وكان طبيعيا أن أترك النساء ، قبل أن أحب واحدة منهن ، وأخجل .

وجلست ذات يوم بارد في حديقة منزلنا ، وأمي تعد طعام العشاء ، وكنت أقرأ في («سوخ كافكا») (١) ، وكان لحدته وقسوة شكله ، يجعلني أحس بان حكاية وجهي تنهشم عند سطور مسخه ، وان ما يخلدني ويؤطر وضعي بالرهبة ، يمكن تبريره بحيث أهدأ ، وأنام .

كنت أنظر في وجه أمي ، وأعرف انها تحاول أن تبعد عني بعض ما أحسه ، وكانت لسذاجتها تفشل ، وكنت أخاف صمتها الذي يمزق في داخلها كل شيء ، وكنت أبكيها أكثر مما أبكي نفسي . وشدت على عيوني ، ورمتها بين الأوراق ، حتى جاء دارنا صديق ، أخبرته أمي بأنني غير موجود ، واني لم أعد أجيء الى المنزل ، ثم صدقها وانصرف ، وأغلقت الباب ، لتنزوي في مطبخها تعد لنا العشاء . كنت حينها أمد ساقي على الجدار ، وأترك الساق الثانية فوق أرض الحديقة ، حيث أحس بارتياح لهذا ، وما كنت أعرف ان جارتنا (حنان) تلتصص من سطح منزلها الى وجهي ، وكانت قد تجاوزت العشرين من شبابها دون أن يلاحظها رجل ، أو يفكر انها شبه عانس متروكة بلا عناية .

وكان أن رفعت رأسي ذات صدفة ، فوجدتها تضم رأسها خلف الجدار بسرعة كادت أن تجعلني أغفلها ، وشعرت بشيء يشبه الفضب ، ولم أقل لامي ، كما تجاهلت حنان ، وتمعدت أن أظل في مكاني ، حتى اني لم أستطع تفسير هذا ، وتركت لها أن تجرب من جديد ، وكنت أعرف انها ساذجة العقل .

كنت قبل اصابتي بأمراض وجهي أراها وهي تعلق الثياب ، كما أبصرتها حين مرت ذات صباح الى سوق المحلة ، ولم أحاول ذات مرة أن أتابعها أو أضم لها رسالة ، ربما لانها أكبر مني سنا ! ولما سمعت من أمي ان أصدقاء أبي سيأتون دارنا يوم الجمعة ، تلمست - توا - عدد هذه الساعات التي أحبس فيها نفسي ، وكمية الفجر الذي ساعانيه ، وكان وجه أمي يحصر بين مساماته كمية أخرى من الخوف والشفقة ، حتى اني كسدت أصرخ في وجه أبي بالا يدعو أحدا ليئا .

وحين بدأت أرسم في خيالي مجيء بعض الغرباء ، كرهت أن أستمر في القراءة ، ورميت برأسي الى الورا ، ورأيت حنان للمرة الثانية ، لكنها ظلت تراقبني بحدة دون أن تضم رأسها عني . ولم أصدق ، ولم أصدق أيضا ، وتمنيت لو رأني أمي ، لكان في ذلك ما يسرها ويبعد عنها بعض الخوف والكآبة ، وكانت أمي ترى ذلك

(*) رواية للفرائز كافكا ، يتحول فيها غريغور سامسا - البطل - الى حشرة كبيرة .

- أمي ماتت ، وأصبحت بعدها أموت في كل لحظة .
وسمعتها تقول ، كان حزنها أكبر :
- اذن أمك ماتت ؟

ولم أكن أحس حبا ، وكنت أنظر في عيونها ، وأحزن ، ولم
أكن أكلهما بالضبط ، لما قلت بصوت هادئ :
- وأنا أموت فعلا .

وكان في عيونها ظل محترق من الكتابة ، وكان على رأسها شعر
أشعث لم تربطه كيفية الفتيات ، وحزنت لأنها عانس ، وكنت أفكر في
الزواج منها لولا وجهي ، ولولا اني بلا عمل ، وكنت أرغب في حبا ،
وأرغب في حبا بقسوة ، وحاولت أن أردد فكرة الزواج في حديثنا
الحزين ، حيث قلت لها ، كاني أساومها :
- لو فكرت بالزواج منك ، أتراك ... ؟

ولم أقل غير هذا ، حيث راحت تزف عيونها في شبق غريب
الى عيوني ، تكلمني عن ذلها ، وعن الرجال ، ثم عن عيوبها الصغيرة ،
وكنت أهر في أعصابها مجرد فكرة ذبلت ، ودنيا تموء بانكسار وحيرة ،
وتمنيت أن أعود لوجهي ، وأعمل .

وكنت أرسم حيرتي مثل فيل عجوز يقع ، وأنظر في وجه حنان
وارسمها كذباية تطن في بيت عنكبوت ، وأمسك رأسي لئلا أجن ،
ثم أبكي نفسي ، وأبكي حنان ، وربما كنت أحس بما يدور في رأسها ،
فأفعل عنها حتى أخجل ، وأعود مثل قط جائع ، أتمس فيها ببقية حب
تكس في عيون فتاة عانس .

كنت أحمل حزني ، وكان يثقلني ، وبات في نهارنا حديث طويل ،
يحمل في كلماته الخائفة بعض ما أحسه وما أعانيه ، وما كان وجهي
ليشفي ويهدأ ، الا اني أكون أكثر ارتياحا حين يمد الليل سواده فوق
جبهتي وعيوني ، ورغم اننا تركنا حكاية الزواج ، فقد ظلت في حياتي
حنان ، وتناست ان شبابها يموت عاما بعد عام ، وكنت أعشقها في
غباوة وصمت ، ولم أعد أحمل أحزاني بهذا الشكل المروع ، ولولا
ضياعي بين وجهي ، وبطالتي ، لكان لحنان في حياتي ثمة صورة
طيبة غير هذه ، وكنت أحسبها ضيفة مسكينة ، أملك نحوها كمية حب
عظيمة ، لم أستطع ليوم واحد أن أضمها خلف عيوني ، وكانت تحس
بهذا وتضحك ، وتحس به وتهزأ من عذابها ، وكنت أمامها أتخيل أمي

ونداوة وجهها ، ثم يجيء وجه حنان ، وأحس بفارق غريب ، يقربني
الى الجنون ، ويبصق في ذاتي ، وحينها أمسك رأسي ، لئلا أجن .
- لقد تقبلتها في حياتي رغم هذا .

وعدت أحمل حزني ، وكان يثقلني ، وكهرت أبي ، ثم سألته ذات
صدفة مخمورة عن رذالة النساء ، وكان يصغمني - ربما دون سبب -
ويبصق في عيوني ويصرخ في خباثة :
- من أنت أيها البشع ؟

ونسيت أن دموعي تزيد وجهي بشاعة ، وتزيده بهجة ، وتركتها
تتعرج بين نتوءات وجهي ، وتصرخ دون صوتي بأني أموت ببطء بعد
أمي ، وان أبي ينام بين نسائه ويحلم ، وكنت أحس بوجه حنان ،
وأحلم في بحة صوتها (رغم قباحتها) فأهدأ مثل طفل صغير ، وأبدأ
في النوم ، كان بصاق أبي مجرد شيء فوق وجهي .

وكان يثقلني النعاس ، وصورة أمي لم تزل فوق عيني ، وكنت
أكتفي بان حنان تحمل مثلي بقية انتظار لكل شيء نعيشه ، وحين
صحوت من النوم وجدنتني لم أتم غير ساعة واحدة ، كنت فيها أداعب
وجه أمي ، وجه حنان ، وأبصق في هيئة منزلنا ، وجه أبي ، ونظرت
الى سقف الغرفة ، وكان متريا ، وأعطيت رأسي لوسادتي كي أنام مرة
ثانية ، حيث لم أستطع .

ثم تكورت على هيئة رجل يضربونه ، وحاولت أن أجازف فسي
خروجي ، وأجلس في مقهى محلنا ، لينظرني أصدقائي ، وليسخر
مني من يسخر ، وليبصق في وجهي من يرغب ، لكن أبي يمنعني بمثل
هذه الحدة :

- خروجك معناه ألا تعود ، أتريدهم يضحكون منا ؟
وكنت بهذا أعود الى غرفتي ، وأجلس مشل طفل يتبول ،
وأنظر في جدران الغرفة كأنها تضحك مني بشراة ، وما كنت أصرخ
فيها ، حيث اكتفيت بتلك الإهانة ، وأرضيت نفسي بأخر ما نزلتسه
من صبر .

وقلت لنفسي : اني مهان ، وان خروجي اهانة لغيري ، وان مكاني
هنا ، وحاولت أن أرتضيه ، لعل جزالة إيماني تهيب لي فرصة
طيبة ، وكنت بهذا أحس بلذة البكاء .

عبد الستار ناصر

بغداد

تسريح جنة الاستعمار

تأليف غي دوبوشير
ترجمة ادوار الخراط

صدر حديثا :

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوربية محض ، وهو يتلمس الصلة
بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت
المسيحية ظلها على اوربا ، وصلة ذلك بالفزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاختفاء الجوانب الاقتصادية
الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة
ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .
ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق
للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي فسي آسيا وافريقيا ،
وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب